

عنوان البحث
قيمة الذات والفعل التواصلي في المجال الفلسفي

إعداد

د. محمود محمد المهدي

أستاذ مساعد بقسم الفلسفة كلية الآداب جامعة بنغازي

ملخص البحث :

نتحدث في هذا البحث عن المجال الفلسفي ومدى قدرته على صياغة قواعد بناء الذات ومهارات التفكير المنطقي وبيان قدرته على التواصل المعرفي ، فهو يسهم في بناء الفكر ويقدر الهوية ويحترمها ، فالفلاسفة منذ القدم حرصوا على دراسة الفكر الإنساني وتحصيل مفاهيمه لأجل الارتقاء بالمضامين الأخلاقية والقيم الإنسانية وإبراز قيمها الواقعية وفي الواقع تم إهمال الفلسفة ولم يُنظر للدور المناط بها ، ولم تحظ باهتمام المسؤولين في الوطن العربي ، حيث هُُمِّش دورها ولم يُعن بأهميتها الإنسانية ، وقيمها في رفع مستوى التفكير وتوكيد أسس الحوار والتواصل والنهوض بالأمة ، والسعي نحو تحقيق التنمية البشرية ، ولم يتم في الواقع التعليمي التركيز على إخراج الفرد من حيز الفكر الضيق المفيد إلى فضاء الفكر الحرّ من خلال إكسابه آليات التفكير وترشيده لكيفية استخدام المناهج واستثمارها ، حيث تركز العمل فقط في حدود تعليمية ضيقة في المدارس الثانوية والجامعات التي اعتمدت السرد التاريخي وابتعدت عن إكساب الطلاب مهارات وأسس الحجاج وكيفية التواصل.

تكمن أهمية البحث في الدعوة إلى إعادة النظر في المنظومة التعليمية والتربوية حتى نستطيع تحقيق ذواتنا في عالم لا مكان فيه للضعفاء ومعدومي التفكير الذين لا يملكون القدرة على التواصل وعلى تطوير الذات وباعتبار الفلسفة بمذاهبها المختلفة تهتم بالإنسان والقيم ، فيجب تفعيل دورها والاهتمام بها ، والاستفادة من مناهجها ، فهي ذات أهمية في تقييم السلوك وتنشيط دور العقل ، فمردودها أخلاقي وفكري وثقافي بعيد الأمد .

Research Summary

The aim in this research is in the philosophical field and its ability to formulate rules of self-developmeat logical thinking and to enhance oar communication abilities, it aims on boilding owr minds and respects and appreciates owr identities.

Philosophers since old times , have assured on studying the human mind for the goal of elevating the moral principles and values to dawonstate its actual importance. unfortunately philosophical studies have not received the attention that they deserve as central disciplines the humanities .

Even the authorities within the establishment in the Arab world have reflected philosophy and the importance of its role for improving and enhancing the level of thinking and assuring the foundations of dialogue and communication in order to foster human and social development . In fact in the academic domain not enough space was given to exploring and extending the study of unlimited thinking .

they concentrate as a matter of fact , on working in every specific and limited fields within schools and universities which was based on the historic approach. Indeed , it was distant from providing students with the basic skills of positive thinking and inter – personal relation .

The importance of this research lies with a reconsideration of the Process of teaching in order to achieve a better development of ourselves in a very competitive world that have no space for weakness or limited thinking .

More over this philosophical approach with its different aspects foster a more caring attitude towards human beings and values , Therefore we should activate its role and assign it the proper importance in order to maximize its benefits .

This in turn will help to improve behavior and enrich the full potential of our mind in the light of ethical as well as cultural considerations in the future .`

المقدمة

نتحدث في هذه الورقة عن المجال الفلسفي ومدي قدرته على صياغة قواعد بناء الذات ومهارات التفكير المنطقي والقدرة على التواصل، فهو يسهم في تعلم كيف نفكر وكيف نستطيع احترام الهوية وتقديرها، وهذا نلتمسه من حرص الفلاسفة على دراسة الفكر الإنساني وتحصيل مفاهيمه، لأجل الارتقاء بالمضامين الأخلاقية والقيم الإنسانية وإبراز قيمتها الواقعية في زمن يتسم بالطابع النفعي المرتبط بالتقدم التقني. ومع هذا فهو مجال لم يحظ باهتمام المسؤولين في الوطن العربي، حيث همش دوره، ولم يعن بأهميته الإنسانية، وقيمه في رفع مستوى التفكير وتوكيد أسس الحوار والتواصل، والنهوض بالأمة، والسعي نحو تحقيق التنمية البشرية، ولم يتم في الواقع التعليمي التركيز على إخراج الفرد من حيز الفكر الضيق المقيد إلى فضاء الفكر الحر من خلال إكسابه آليات التفكير وترشيده لكيفية استخدام المناهج و استثمارها، حيث تركز العمل فقط في حدود تعليمية ضيقة في المدارس الثانوية والجامعات التي اعتمدت السرد التاريخي و ابتعدت عن اكساب الطلاب مهارات التفكير وأسس الحجاج وكيفية التواصل.

يعد ما يحدث اليوم في مجتمعاتنا العربية لا سيما في المجتمع الليبي من تعدي على حرمت الدولة و سرقة المال العام وتخريب البيئة والعبث بها...الخ والاحتكام للسلاح و الاستهانة بحقوق الإنسان وحرمة الدم أزمة أخلاقية مرتبطة في أساسها بالأفكار والثقافة ومتصلة بطبيعة الحياة السياسية، وعلى المجتمعات العربية أن تلتفت إلى الفلسفة؛ لكونها تمتلك آليات قادرة على رسم الطريق نحو التغيير والحث على الارتقاء بالعمل و إصلاح الذات من خلال مناهجها المتعددة التي تعمل على ترسيخ قيم العدل والإنصاف والرحمة و تهذيب العقل و إمداده بأسس الحوار، وتسعي إلى بناء الإنسان وتكوين شخصيته.

إن الدعوة إلى إعادة النظر في المنظومة التعليمية والتربوية يعطينا الأمل نحو تحقيق ذواتنا في عالم لا مكان فيه للضعفاء ومحدودي التفكير الذين لا يملكون القدرة على التواصل وعلى تطوير الذات، وباعتبار الفلسفة بمذاهبها المختلفة تهتم بالإنسان والقيم، فيجب تفعيل دورها والاهتمام بها و الاستفادة من مناهجها، فهي ذات أهمية في تقويم السلوك وتنشيط دور العقل، فمردودها أخلاقي وفكري وثقافي بعيد الأمد.

الفلسفة والاستثمار البشري :

يعد الاهتمام بالفلسفة و مراجعة أدبياتها التي تدرس في الثانويات والجامعات و إعادة النظر في مناهجها و العمل على ضرورة تعميمها في جل التخصصات العلمية، أحد العوامل المساعدة في النمو الثقافي، وإذا ما أريد لليبيا على سبيل المثال أن تكون في مصاف البلدان المتقدمة، عليها الاهتمام ببنية التعليم، و خاصة التعليم الفلسفي واستثماره للنهوض بالمجتمع، فالدول المتقدمة عملت على استثمار العنصر البشري المتعلم تعليما جيدا، "لأن التعليم الصالح ذا النوعية الجيدة هو السند القوي للتنمية والأداة الفعالة للوفاء باحتياجات التنمية". (الشيباني، 1979: 32)

إن الاستثمار الحقيقي يجب أن يسلط على الاستثمار البشري، فلا يمكن تصور أي تغيير على أي مستوى من مستويات الحياة اليومية نحو الأفضل بغير الإنسان الناضج الذي يمتلك

معارف ومهارات وخبرات وفكر خلاق مبدع . ولهذا نحن نعول في طرحنا على الاهتمام بالمجال الفلسفي، وهذا لا يعني إقصاء أي مجال آخر لاسيما المجال التقني من عملية النهضة والارتقاء، هذا بجانب ضرورة الحرص على الوعي الديني الصادق الذي يحث على احترام الذات وبناء الشخصية والصدق في مزاوله العمل والاهتمام به، فالاعتماد على المنظومة التعليمية و التربية في بناء الفكر الإنساني يحتاج منا إلى تكثيف الجهود في شتي المجالات وعلى رأسها المجال الفلسفي (عبد السلام، 1992: 32، 33)، فمسألة النهضة بالفكر و تطويره تحتاج إلى إعادة النظر في المناهج الدراسية وتقييم مخرجاتها، والفلسفة باعتبارها جزء من المنظومة التعليمية باستطاعتها إن تسهم في الرفع من قدرات الإنسان، فيجب ألا يستهان بها في تطوير العقول وتهذيبها. فهي تمدنا بآليات التفكير وتساعدنا على كيفية بحث القضايا ومعالجتها (انظر، رافع، 1976)، وهذه غاية نطمح إلى تحقيقها، حيث تكمن سلامة العمل في الارتقاء بمستوي التفكير، واستخدام المنهج العلمي الصحيح، حتى نستطيع تحقيق حياة اجتماعية فاضلة، وخلق جيل واعى قادر على إيجاد قراءة جديدة للأحداث المختلفة على الساحة العالمية من خلال توسيع آفاق الاستدلال والتحليل والنقد، فالفلاسفة يحذون دائماً نظريات المعرفة على نظريات التعلم، لأنها ذات علاقة بجميع نواحي التفكير الإنساني بما فيها طرق التفكير وحل المشكلات. (توزي وآخرون، 2005: 7).

اثر الانغلاق على قيمة الذات و التواصل :

أ. بناء الذات :

من نتائج التركيز على صقل الإنسان ببعض المعارف والمهارات الفكرية إكسابه طرق الحجاج و كيفية النقد للتغلب على المشاكل المتعلقة بأساليب الحوار، فنحن نعيش في زمن لا حدود فيه بين الثقافات والمعارف، وهذا يفرض علينا معرفة أسس التواصل مع الآخر، و العمل على كسر التقوقع و انحباس الذات، كما إننا لا نريد أن نتلاشي هذه الذات وثقافتها وعاداتها وتقاليدها أمام الآخر، ويعد المجال الفلسفي أحد السبل التي تكفل لنا نجاح العمل، فهو قائم على ترسيخ ثقافة النقد و توضيح المفاهيم والتصورات ويهتم بلغة الحوار والتواصل و يركز على الحجة والبرهان، فهذا المجال كفيل بأن يصون الأجيال الناشئة من التقليد والانحراف.

إن من مهام الفلسفة تقوية البحث المتعلق بالإنسان الذي يعد مصدر الأخلاق وموطنها، وتهتم بكيانه وهويته، فهي بذلك تعد مرشدا حقيقيا للواقع الذي نعيشه، وهذه المهمة الفلسفية تتطلب إلقاء شعاع الفكر على نفسه أي : أن يرتد الفكر على تأمل ذاته وبإمعان فيها، وهذا يحتاج مجهوداً كبيراً، (مرحبا، 1988 : 88)، لأن الفكر هنا لا يراقب الأشياء الخارجية، بل يراقب عالمه الداخلي، والفلسفة اليونانية هي التي مهدت لهذا الطرح على يد الحركة السفسطائية (Sophism) ومن بعدهم سقراط (Socrat، 469 - 399 ق.م) الذي أسهم في ذلك، واستخلص أفلاطون (Platon 428-348 ق.م) وأرسطو (Aristote 384-322) نتائج التركيز على الذات، وكان تمهيد السفسطائيين للاهتمام بالذات نتيجة تغير في الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أثينا منذ النصف الثاني من القرن الخامس ق.م. (مرحبا، 1988 : 89) ففي هذا الوقت تحول أو بدأ انتقال الفكر اليوناني من دراسة الطبيعة إلى دراسة عالم الإنسان، وهذا يعلل لنا مقولة بروتاغوراس (Protagoras 411 ق.م) الإنسان هو مقياس كل شيء، وهذا يحيل إلى " أن

مقاييس الأشياء والسلوك ليست مطلقة مستقلة عن الإنسان، وإنما هي نسبية متغيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان وظروف البيئة والتربية والمستوي العقلي والاجتماعي " (عطيتو، 1999: 90)، وهذا يبين لنا الدور الذي لعبته الفلسفة اليونانية القديمة في تطوير الإنسان والاهتمام ببناء ذاته و جعلها ذاتا واعية وفاعلة بمجريات الأحداث اليومية، فالحركة السفسطائية، وإن اتهمت عند سقراط الذي وصفها بالبعد عن الحقيقة و تصدي لأفكارها، فهي قد أشارت إلى قيمة الإنسان، واهتمت بفكره بدلاً من البحث في الميتافيزيقا ومجاهلها، وبالتالي استقرت بفكرها وطرحها عقول اليونانيين، لا سيما سقراط الذي بدأ معه دور العقل في البحث عن ذاته للإحاطة بكنه الإنسان وطبيعة التفكير، وفي هذا الشأن قال عبد الرحمن مرحبا : " السفسطائيون هم الذين أيقظوا العقل من سباته العقائدي، وانتصروا لاستقلال الفرد واحترام شخصيته وحمانيته". (مرحبا، 1988: 91).

إن دراسة الفلسفة اليونانية تفيد في تأصيل الفكر الإنساني، وتمنح الإنسان دراية لا بأس بها، وتضعه في المساق الصحيح، إذ أراد أن يسلك النهج و التفكير المنطقي السليم، ولهذا يجب علينا التركيز على التعليم الفلسفي في مدارسنا وجامعتنا ؛ لكونه ذا فائدة عقلية، فالفلسفة عندما تمارس كما ينبغي، فإنها تشيع بين طلابها روح الديمقراطية والقدرة على مواجهة المشاكل، ولكي نصل إلى طور من التفكير الراقي يجب علينا صقل عقول طلابنا صقلاً جيداً تكون دعائمه لغة الحوار المنطقي، والتدريب على طرح الإشكاليات وكيفية إيجاد الحلول، وإذا وصلنا من خلال المنهج الدراسي إلى هذا الطور نكون قد وضعنا حداً فاصلاً لانسياب الثقافات المغايرة، والتيارات المخالفة لمعتقداتنا وانتماءاتنا العقائدية، إن الفلسفة تنطوي على دعوة غير مباشرة، للانتشال من التخلف والقهر، والاتجاه نحو التقدم والحداثة، فمن أساسيات الفلسفة **الحجة والبرهان** أي: استنادها على العقل، فالأسلوب الحجائي العقلي، هو وليد الفلسفة، ولكي نحافظ على ماهيتها يجب استبعاد تدريسها بوصفها نوعاً من المعرفة العامة، وعلينا عدم مجاملتها، بل يجب تبني آلياتها بشكل فعلي، بدلاً من إقصائها، لأنها تعتمد الأساليب المنطقية، فيروثاغوراس كان يبشر بالقول "إن تغيير الناس ليس بالقوة، وإنما بالحجة والبرهان، ولذا كان يحترم القيم الديمقراطية مثل العدل وحرية الغير والإقناع". (عطيتو، 1999: 243)

بـ أثر الانغلاق على التواصل :

يجب ألا نكون منغلقيين على ذاتنا ومحدودي التفكير حتي لا يصنف مجتمعنا من ضمن المجتمعات المنغلقة التي تحدث عنها برغسون (1859-1941) (انظر، برغسون، 1984)، فمفهوم الانغلاق من المفاهيم التي يجب علينا الوقوف عندها ما دمنا نتحدث عن بناء الذات و المضامين التواصلية للفكر الفلسفي، ورأينا ضرورة الإشارة إليه؛ لكوننا نعاني من الانغلاق الفكري في بعض الدول العربية، ومن بينها ليبيا التي بات فيها الفكر محصوراً بين زوايا محددة رسمتها السياسة العامة للدولة خلال السنوات الماضية، وأصبحت ثقافة المجتمع تدور داخل إطار سياسة الدولة التي ترفض أي فكر ناقد لفكرها، وهذا يعد من السياسات الممنهجة التي أتبعها الحكومات العربية في الحد من الفكر الحر القائم على النقد البناء، وهذا الأسلوب فرض ثقافة الانغلاق، و نحن هنا نراهن على الفلسفة في تزويدنا بمبادئ الوعي واسس العمل الصحيح الذي نسعي من خلاله على كسر الانغلاق الفكري، فهي مجالا مفتوحا على كل المجالات و كذلك في كونها تعمل على استرجاع قيمة الإنسان و وضعها في مسارها الصحيح، فهي تنمي الفكر وتضعه في

سياقات منفتحة، و الرقابة الوحيدة في هذه السياقات هي رقابة المنطق وآلياته، فالإنسان ولد حراً، ولكن الظروف التي مر بها هي التي حجبت حقيقة هذه الحرية وقيدتها، حيث برزت أفكار كثيرة منتمة لتيارات مختلفة كرسست جهدها في تبجيل أفكارها، و وأد أي فكر مناهض لها، وأصبح أنصارها ينادون بشعارات معينة ويمجدون أفكارهم، وهذا يعد من سبل الانغلاق والانحباس الفكري، والحد من قيمة الإنسان وتحديد مطالبه واتجاهاته الشخصية واختياراته.

إن الحديث عن المجال الفلسفي وقيمه يتيح للمجتمع معرفة أسس النقد والتأويل كما سلف ذكره، و يعطي جملة من المهارات التي بها يتمكن الإنسان من الانفلات من قبضة الانغلاق، فهي تروم جملة من المناهج بجوار تعقلها للأمور والقضايا، فهي بذلك تعد نهجاً نستطيع به التغيير والتجديد والتقويم والتصحيح الحقيقي لمجتمعنا العربي.

ج _ سمات الانغلاق و الانفتاح كما حددها بوبر: (بوفريس، 2008: 71، 72)

- لقد استعار كارل بوبر (Pupper Kar Raimund 1902 - 1994) مصطلح الانغلاق والانفتاح و وظفه توظيفاً عقلياً مختلفاً عن توظيفه الديني عند برغسون، و حدد بوبر أوجه الاختلاف والتعارض بين المجتمع المنفتح والمنغلق على النحو التالي :
- لا يفصل المجتمع المنغلق بين قوانين الطبيعة، وتلك التي جاء بها الإنسان، ويقدر كثيراً الطابوهات والإكراهات .
 - في حين أن المجتمع المنفتح لا تكي (Laique) ينظر إلى المؤسسات كإبداعات إنسانية
 - المجتمع المنغلق سلطوي، يرفض الفكر النقدي .
 - على العكس يمكن أن نمارس منهجياً وبكل حرية الفكر النقدي داخل المجتمع المنفتح، وهو ما يفسر أهمية الفلسفة، والعلم داخل هذا المجتمع .
 - يرفض المجتمع المنغلق كل إمكانية للتطور متوخياً البقاء مماثلاً لذاته .
 - على النقيض يتطور المجتمع المنفتح باستمرار، رافضاً كل سكونية أو مهادنة مع ذاته .
 - المجتمع المنغلق، مجتمع عشائري لا يؤمن بالفرد، ومن ثم ضعف تحمله الاختلاف والتعدد .
 - أما المجتمع المنفتح فيجعل من الفرد قيمته العليا، وهو ما يعطي لكل واحد الحق في أن يحدد اختياراته الشخصية .

يمكننا من خلال هذه النقاط التي حددها بوبر تحديد طبيعة مجتمعنا، وما علينا ألا العمل من أجل تطوير ذاتنا من خلال التواصل المعرفي مع كل المعارف والعلوم، والفلسفة بمناهجها المختلفة قادرة على تحقيق التواصل المعرفي، وفك عزلة المجتمعات باعتبارها تجسد الفكر الحر

من خلال ممارستها للنقد وعدم الرضا بثقافة الواجب والطاعة والتكليف والتقليد التي تسلب حق الإنسان الطبيعي من ثقافة النقد والسؤال والتفكير والتفكيك والرفض.

الفلسفة من بناء الذات إلى التواصل الفعال :

بناء الذات يعد من الأمور الصعبة نظراً لتعدد المنافذ التعليمية والتربوية، ولم تعد هناك سيطرة على كل المنافذ التي تسهم في بناء الذات وبرمجة الأفكار، و المجال الفلسفي الذي نعول عليه باعتباره عاملاً مساعداً في توعية العقول و صقلها و تكوين شخصيات ناضجة تستطيع تطويع الصعاب وإيجاد المخارج لعديد المشكلات، فمن الصعب بيان ماهية هذا المجال لغموضه في الوسط الاجتماعي، فهو لا يمارسه ألا من يجيد ألياته، ويعتبر مجالا يصعب إيصاله للآخر، ونحن هنا نراهن على دوره في التواصل الإنساني في كونه يركن إلى قيم الحق و الخير والجمال ويمارس الحجاج بالمنطق وكذلك ينبذ العشوائية.

كما هو معلوم عند الجميع أن مسألة التواصل بصفة عامة تحتاج إلى جملة من المهارات والإمكانيات الذاتية، و المجال الفلسفي بصفته نسقا متكاملًا لجميع المعارف فبإمكانه أن يكسب الأشخاص هذه المهارات ويمكنهم من انتهاز التفكير الصائب وأتباع نهج النقد البناء، والامساك بنصية آليات الحل أو الاقتراب من إيجاد الحلول، فهو يهدف إلي "التماس الحق في النظر وتوخي الخير في الفكر والعمل وتذوق الجمال لإضفائه على كل ما يصدر عنه من تصرفات، وفي كل ما يدور بنفسه من مشاعر ووجدانات " (إسماعيل، 2004: 132)، فإذا ما استطاع الإنسان أن يطبع بذلك نفسه، فلا شك أنه يكتسب دقة التفكير الناجم عن صفاء العقل وتركيزه هذا بجانب أنه سيكون متميزاً عن سواه، فعندما يعي الإنسان أهمية الفلسفة و دورها النهضوي في مجال التواصل المعرفي، سيكون هناك لا محالة تغيير في المواقف المناهضة لها والمعركة لمسيرتها.

لقد كان السؤال عن الفلسفة وجدواها يجوب العقول منذ القدم ولا يزال كذلك في عصرنا، فليس من السهل معرفة كنهها ومن الصعب فيها أن يمتلك الشخص حكماً صائباً على كل الظواهر و الأشياء، و إذا ما اقتنعنا بأن " الفلاسفة أناس يمشون حياتهم في محاولة أن يصبحوا حكماء" (وول، 2004: 37). فهذا يجعلنا نقف أمام بيان الفارق بين التفلسف و الفلسفة، وكان ذلك منطلق الفيلسوف إيمانويل كانط (Kant Emmanuel 1742 - 1804 م) الذي اعتبر الفلسفة نسقا مكتملا، وهي ليست سوى فكرة لعلم ممكن، ولهذا "لا يمكن تعلم الفلسفة، فما يمكن تعلمه هو التفلسف، لأن الفلسفة هي نسق كل معرفة فلسفية، والفيلسوف هو من يكون قادرا على استخدام ودمج كل المعارف كأدوات لتحديد الغايات الأساسية للعقل الإنساني" (الخطابي، 2010: 25)، وهذا يعد أمراً صعباً كما يخبرنا، " لذا لا يمكننا أن نتعلم سوى التفلسف كفعل للتفكير يفحص مبادئ الأنساق الفلسفية ومصادرها، ويعمل على تأييدها أو رفضها، وبالتالي يصدر حكماً شخصياً قائماً على خاصية النقد" (الخطابي، 2010: 25). وهذا ما دفع كانط إلى إقرار الصيغة المشهورة: "لا يمكننا أن نتعلم الفلسفة بل يمكننا أن نتعلم التفلسف". (الخطابي، 2010: 25)، وفي مقابل هذا الرأي نجد هيجل (Highel Georg Wilhelm frderic 1770 - 1831) ينحى منحى مخالف لكانط عندما يري بأن الفلسفة قابلة للتعلم، وهي بذلك تكون قابلة للتواصل؛ لأن ما يمكن تعلمه هو محتوى الفلسفة " إن السعي نحو تعلم التفلسف في غياب محتوى الفلسفة سيؤدي إلى أذهان فارغة، و لأن

فكر المتعلم ناقص ومتعثر ومليء بالأوهام فإن تعلم محتوى الفلسفة سيملاً فراغاته، وسيجعل الحقيقة محل الفكر الوهمي" (الخطابي، 2010: 28)، وكان إقرار تعلم الفلسفة عند هيجل راجع إلى اعتبارها علماً موضوعياً للحقيقة، فالطرح الهيجلي في هذه المسألة مخالفاً في جوهره للطرح الكانطي، الأمر الذي يوضح لنا بأن الفلسفة نشاط فكري صعب يختلف في ماهيته عن أي نشاط آخر، فهي نشاط تأملي نقدي لا يروم الأحكام القطعية كما ترومها جل الأنشطة الفكرية الأخرى، وهذا ما جعل أفلاطون (Platon 428-348 ق.م) لا يضع حداً فاصلاً لكيفية الاتصال بين عالم المثل وعالم الحس، وهذا نجد واضحاً في محاوره بارمنيدس (انظر، أفلاطون، 2002) حيث إن أفلاطون لم يضع حداً لنظريته في المثل، ونجد قد تناولها في العديد من محاوراته، ومات دون أن يصل إلى نتيجة مرضية، يتقبلها ويأخذ بها الآخرون من بعده. في هذا تأكيد على أن "البشر يخفقون غالباً في حسم المسائل الفلسفية، فأحرى أن يكونوا أكثر عجزاً عن تحديد ماهية الفلسفة نفسها" (الصادي، 2004: 296)، وفي هذا بيان صعوبة هذا المجال الذي نسعى إلى تبين دوره التواصل من خلال الإشارة إلى آلياته ومناهجه، فهو مجال قائم على تعلم استعمال النقد أكثر من أي نشاط آخر، لأن في استعمال النقد تكمن عملية الحوار مع مختلف المعارف والعلوم، فهو بذلك يركن إلى عملية التواصل مع فكر الآخر، ويعمل على "تقوية شخصية الإنسان وتأهيل ذاته وتهذيبه" في أي مجتمع - لأن يمارس بفاعلية وصدق ما هو بصدد بحثه، أو ما هو واقع في دائرة اختصاصه" (إسماعيل، 2004: 135)، ويجب أن نعي بأن "الفلسفة ليست معرفة جاهزة للتلقين، بل هي ممارسة نقدية لأسس كل معرفة نظرية أو عملية، ولأنها ممارسة نقدية فهي فعل تواصلية بقر ما يفترض من شروط ومكونات في المرسل (الملقن)، وفي الرسالة ومضمونها"

(<http://falsafamagharibya.blogspot.com>).

و بهذا المعنى تعد الفلسفة من سبل التواصل المعرفي عندما تقوم بنقد ما تمارسه من معارف، وتحليل ما يقع تحت يديها من معلومات، وهنا يتبين لنا الجهد الذي يجب أن يمارس من قبل مرديها لتبيان الحقيقة والوصول إليها، وعندما يمارس الفيلسوف مهمته التحليلية والنقدية والتأويلية، فهو يقوم بعملية تواصلية مع المعارف الأخرى.

أزمة الوعي والقيم :

وبعد هذا التوضيح المتعلق بماهية المجال الفلسفي والتواصل يتبين لنا بأن هناك أزمة بين الفلسفة والواقع ربما يكمن سببها في عدم وجود أحكام قطعية يرومها هذا النشاط أو لاختلاف الفلاسفة في تحديد ماهيتها وعلاقتها بالواقع المعاش، أو لعدم وجود فلسفة حقيقية لدينا، وقد أشار حسن حنفي إلى ذلك عندما تحدث عن أزمة الفكر الفلسفي في جامعاتنا وفي حياتنا العامة، وقد حدد جوهر هذه الأزمة في كون الفلسفة لدينا تجميعاً لأقوال وعرضاً لمذاهب، وعليه لا نستطيع القول بأن لدينا فلاسفة أو اننا اخرجنا فلسفة (حنفي، 1987: 14)، وهذا التشخيص للفلسفة العربية وضح لنا بأن هناك قبول ضمنى للتصور السائد للفلسفة الغربية بمختلف مذاهبها ومستوياتها وأغراضها (ضاهر، 1987: 72)، وهذا القبول غيب الدور الحقيقي لها في واقعنا العربي، هذا بجانب إهمال تدريسها في مدارسنا وجامعاتنا الأمر الذي وضع الفلسفة العربية في أزمة حقيقية بسبب محاكاتها للفلسفة الغربية وإهمال دورها في المنظومة التعليمية، وقد تحققنا من هذه المسألة عندما

واجهتنا أزمة فكرية ذات علاقة بالإنسان بعد ثورات الربيع العربي، ولا سيما في أوساط المجتمع الليبي عندما عجزنا عن إيجاد الحلول لبعض الاشكالات السياسية بعد انهيار مؤسسات الدولة وتدميرها، ولم نستطع إقامة برنامج توعوي نهضوي متكامل لتفتيح المدارك بمخاطر الفراغ السياسي بعد الثورة، وكان السبب في ذلك غياب الوعي المجتمعي و استغلال إيديولوجيات محددة لهذا الفراغ لتنفيذ برامجها.

وكان من المفترض توعية المجتمع وتنقيفه بمخاطر استخدام فكر معين في تحقيق المآرب الذاتية، والتنبيه الى ضرورة الالتفات إلى الطبيعة الثقافية والتركيبية الاجتماعية ؛ لأنها تؤثر في بناء الكيانات السياسية وتوجه المجتمع التوجيه السليم، و تعد الفلسفة أداة من أدوات الوعي؛ لأنها تهتم بقضايا الإنسان، وما يتعلق بها، خاصة أن هذه القضايا في جوهرها ذات نزعة إنسانية تعبر عن "موقف فلسفي وأخلاقي وجمالي يهدف إلى اعتبار الإنسان القيمة القصوى التي يكتسب منها التاريخ والمجتمع معناهما". (توفيق، 2005: 474)

إن ما يحدث اليوم في مجتمعنا من تعدي على حرمان الدولة من سرقة المال العام وتخريب البيئة والعبث بها ... الخ يعد أزمة أخلاقية مرتبطة في أساسها بالأفكار والثقافة ومتصلة بطبيعة الحياة السياسية، و يكمن دور الفلسفة هنا في التغيير و الحث علي العمل والإخلاص و إصلاح الذات و الإيمان بالنقد البناء (إسماعيل، 2004: 132)، فهناك من يؤكد على إن " كل فلسفة تتخلى مبدئياً عن اتخاذ أي موقف في الحاضر تبطل أن تكون فلسفة" (خليل، 1981: 13)، وسقراط قديماً- كما مر معنا أنفاً- قد نهض لمحاربة بعض الأفكار التي اعتبرها تشكل خطراً على بنية المجتمع اليوناني و حاول تبصير اليونانيين بها و عمل على إصلاح عقول الشباب والتأكيد على أخلاق و قيم مجتمعه، وكان شعاره المعروف **الفضيلة علم والرذيلة جهل**، وهذا الشعار يدل على مبلغ إيمانه بالعقل وحبه للخير ومضي في مهمته التوعوية، لأنه يعتقد في قرارة نفسه يحمل أمانة يجب يصلها الى المجتمع (كرم، 1966: 52، 53، 54)، وكان يعمل على توكيد احترام القوانين، وتغير مسار الحياة الثقافية في ذلك الزمن، وهذا ما جعل الفلاسفة في مختلف العصور يعملون بشكل دائم على التغيير والتجديد ونلمس ذلك عند جون ديوي (Dewey John 1859-1952 م) الذي رأى إن " كل شيء في حياة الإنسان قابل للتغيير إن دعت الضرورة إلى تغييره، ولا يجوز أن يقف شيء - مهما كانت قيمته وقداسته - حائلاً في مجرى الإصلاح الاجتماعي وتوفير العيش الرغيد للإنسان العامل، لابد من تغيير قواعد الأخلاق إن اقتضى الإصلاح هذا التغيير". (عبد الرحمن، 1992: 113)

ما نشاهده في الواقع العربي إن المجال الفلسفي لم يؤد دوره التواصل مع المجتمع، ولم يسهم في أي تغيير ثقافي كان أم سياسي، بل ظلت مذاهبه تدرس وفق خطة فرضتها السياسة العامة لبرامج التعليم في الدول العربية، ولهذا لحقه شيء من التهميش والقصور أسهم في تجهيل الطلاب بماهيته، ولم يدركوا اهتمامات هذا المجال بالإنسان ومبادئ الحرية، ولم يدرسوا المفاهيم والتصورات المتعلقة بالقيم، ولهذا نجدهم غير متمكنين من أسس التأويل والنقد، فالمجال الفلسفي يمتلك آليات منطقية يشتغل في ظلها الفلاسفة والمفكرون، وهذا التجهيل بمبادئ هذا المجال وآلياته كان أحد أسباب وقوعنا في جملة من الأزمات المتعلقة بالأخلاق والقيم.

إن قضايا الإنسان وهمومه المتعلقة بالأخلاق والقيم هي ذاتها قضايا المذاهب الفلسفية، وقد تناولتها هذه المذاهب بمعاييرها الفلسفية ومناهجها الخاصة، فهذه المذاهب تقوم بطرح ما يستجد في مجال الحياة اليومية من قضايا ذات علاقة بالعلم والسياسة والاقتصاد، والقانون... الخ، وتحاول تفعيل دورها في شتى المجالات من خلال إبراز ما قد تشكله هذه القضايا من إشكاليات أخلاقية أو بيئية أو عقدية أو... الخ، فهي تمثل " فكر المجتمع مركز في مذاهب" (ابوربان، 2001 : 7)، وفي عملية إقصاء الفلسفة من واقعنا التعليمي حدث إقصاء للفعل النقدي في مجتمعاتنا العربية، فالفلسفة تحتوي على قيم الاستقلالية الفكرية، وقيم تكوين الشخصية المميزة التي تتخذ القرارات الجيدة والصالحة لتسيير الشؤون الإنسانية، والناقذة لكل ما تراه غير مناسب، وهذا يهيئ الإنسان إلى تناول الواقع بجميع مكوناته السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية، بعين النقد والتحليل والتأويل، ومن يستطيع أن يمتلك هذه الآليات، ويجيد التعامل معها يكون صاحب رؤية ودراية متميزة. " لذلك كان الوعي الفلسفي الإنساني يعمل في كل مراحل التنويرية على استنارة ثقافة السؤال في الإنسان ". (www.annaged.com)

التواصل بين المجال الفلسفي والعلم :

إن الفلسفة منذ القدم لم تقف عاجزة أمام ما يطرأ من مستجدات في شتي الميادين، فقد ساهمت في طرح قضايا أخلاقية مرتبطة بالعلم، وأمدت البشرية بقواعد النقد والتحليل والتأويل في مجال العلوم الرياضية والطبية، وكان لها نصيب كبير في التطورات العلمية الحديثة. فعلى سبيل المثال إن نظريات الذرة المفسرة لتركيب المادة ترجع في أصلها إلى أينشتاين (Einstein - 1979 - 1955) الذي أضاف البعد الزماني في تفسيره لأبعاد المكان (ابوربان، 2001 : 10)، هذا بجانب آراء وأفكار برتراند راسل (Russel - 1872 - 1970 م)، وهو عالم رياضي كبير يشتغل بالفلسفة، ويربط بينها وبين العلم، فما من مشكلة علمية أو اجتماعية أو اقتصادية إلا و لها اتصال وثيق بالفلسفة، فهي لم تترك التطور البيولوجي على علاته ؛ بل أسهمت في إيضاح الأبعاد الأخلاقية المترتبة عليه، وقد أكد كارل ماركس (Marx Karl - 181 - 1883) بأنه "سيأتي يوم تكون فيه الفلسفة في تماس في علاقة متبادلة مع العالم الواقعي لعصرها - ليس داخلياً بمحتواها فحسب، بل خارجياً بتعبيراتها أيضاً". (ماركس، بدون تاريخ: 22)

إن الفلسفة على درجة لا بأس بها من الدراية والقرب بما يحدث من تطورات علمية بجانب كون الأفكار الفلسفية لعبت دورها في تطور العلم، ولم تكن بمنأى عنه كما يشير لذلك الأستاذ سالم يفوت في كتابه فلسفة العلم والعقلانية، موضحاً بأن ما يطرحه العلم الحديث هو نتاج للفلسفات التي ظهرت عبر العصور، وأن العلم الكلاسيكي يدين بظهوره إلى فلاسفة اليونان من أمثال أفلاطون و أرسطو. (يفوت، 1988 : 144)

وكما هو معلوم لدينا بأن طبيعة الفلسفة نظرية بحتة، وتختلف عن الطب والفيزياء والهندسة والبيولوجيا و الهندسة الوراثية ذات النتائج الميدانية الملموسة، هذا بجانب ما تحقق في مجال الإعلاميات والاتصالات، وما يتبعهما من تقنيات تعامل معها البشر بشكل مباشر أسهمت في التواصل والتقارب الإنساني رغم المسافات البعيدة، ومع هذا الفارق بين طبيعة المجال الفلسفي والمجالات العلمية حاولت الفلسفة مواكبة هذه التطورات السريعة من خلال تتبعها لبعض

الموضوعات مثل التطور الحاصل في مجال الهندسة الوراثية وما يترتب عليه من أخلاقيات، وإن كانت "السرعة العادية التي يتقدم بها الفكر الفلسفي ليست في مستوى التسارع الذي تتحرك به العلوم والتقنيات ذلك ما جعل بعض المهتمين بالشأن الفلسفي يعتقدون أن أمل تجديد الفكر الفلسفي وتسريع خطاه معقود على ما يعرف بميدان الفلسفة العملية وفرع الأخلاقيات التطبيقية بشكل خاص من نمو وازدهار"، (ابوفناس، 2010: 231)، وهذا لا يعني بأن الفلسفة القديمة كانت تقف بمنأى عن تتبع الحياة، وما يحدث فيها من تغيرات وتطورات، فهناك من يري بأن "فلسفة أرسطو في مجموعها بأنها فلسفة بيولوجيا؛ لأن أكثر ما يستشهد به من وقائع مستمد من ميدان الحياة، وتحليلاته لظواهر الحياة تشغل أكبر جانب من فلسفته. وأهم هذه الظواهر عنده مسألة التناسل الذي يؤكد للصورة دوامها". (البير: 1958: 173، 174)

في الحقيقة لا نستطيع فصل الفلسفة عن التاريخ أو العلم أو الاجتماع، فعلاقتها وطيدة بجل المعارف والعلوم، فالمؤرخ يستخدم مناهجها في معرفة العوامل والتيارات التي يقع مجتمع ما أو جيل من الأجيال تحت تأثيرها، وكذلك لا يستغني عنها المشرع والسياسي، فما من تشريع أو حكم سياسي إلا وله روح فلسفية، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن استخدام ما توصلت إليه النظريات وتطبيق نتائجها يحتاج إلى عقليات تؤمن بالرقى الأخلاقي والثوابت الإنسانية الداعمة للتطور العلمي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، و يجب إن يلاحظ بأن هناك حقيقة باتت واضحة وهي ولوج ظاهرة الأخلاقيات التطبيقية لجل ميادين البحث والممارسة في الدول المتقدمة، وهذا ما يوصف **بالفكر الأخلاقي الجديد** الذي أصبح يطلب بشكل متزايد في ميادين المجتمع الحديث الذي يدعو إلى **تخليق** مؤسسات الدولة المتمثلة في التعليم والصحة والبنوك وغيرها من المؤسسات ذات العلاقة بالإنسان. (www.alihaa.ma)

إن المجتمع عندما يحتضن الفلسفة من خلال تبني مناهجها وتهيئة الجو التعليمي المناسب لها و يهتم بتدريسها باعتبارها فضاءً فكرياً حراً ورصيداً أخلاقياً ومجالاً حيويًا لتطوير الفكر من خلال أنساقها المختلفة، سيسهم هذا الاهتمام في النهوض بالعلم والثقافة والتطلع إلى ما هو أحسن، ففي إغفالها وتجاهل قيمتها الأخلاقية وعدم مواكبة جديدها يمكن من انهيار القيم، فما ننوه عليه انه يجب اعتبار الفلسفة حصناً منيعاً ضد أي محاولة تريد طمس الأخلاق والقيم و الهوية و العدالة الاجتماعية والبعد عن الحق وزهق الفكر الإنساني وعدم تطويره.

الخاتمة

إذا كنا نراهن على أن للمجال الفلسفي أهمية في التواصل المعرفي، و في كونه يسهم في بناء الشخصية، ويحافظ على استقلاليتها، فهذا يتطلب التأكيد على آليات المجال الفلسفي المنطقية، و توضيح مناهجه المتعددة ذات القدرة على حل ما يواجه الإنسان من قضايا اقتصادية وسياسية ودينية واجتماعية وعلمية، وإذا كنا ننوه على دوره الإيجابي في تفتيح مدارك الإنسان، فيجب الاهتمام بتدريس المذاهب الفلسفية وتعميمها على سائر التخصصات العلمية، وتفعيل مناهجها، وإعادة النظر فيها، بحيث تصبح مؤثرة في المحيط العام اننا نطلب الإنتاج العلمي الفاعل والمنفعل مع محيطه، ونرفض السرد التاريخي للمذاهب والتيارات الفلسفية أو الاكتفاء بالوصف دون إصدار أي حكم، فمسألة العرض للفلسفات لا تكفي وحدها على التغيير والقدرة على التواصل مع الآخرين.

إن ترجمة الكتب بصفة عامة أو التعليق على نصوصها فعل تواصل مع المعارف والثقافات المختلفة، ولكنها تعد قاصرة ما لم تفعل نتائجها داخل مدارسنا وجامعاتنا فإن ظلت بعيدة عن هذا التفاعل تصبح مجرد ترف فكري لا طائل من ورائه، لأنها لم تسهم في زيادة الوعي والاستيعاب، ففي ترجمة كتب فلاسفة اليونان إلى العربية قديماً حدث تغير كبير في أوساط العالم الإسلامي بفضل هذا التواصل المعرفي الذي أمتد فيما بعد حتى وصل إلى أوروبا التي استوعبت أهم الأفكار الفلسفية عن طريق هذا التواصل الذي قام به علماء العالم الإسلامي.

إننا نتوخى من الفلسفة خيراً، في كونها أداة توعوية تنهض بالإنسان وفكره وتسمو به نحو حياة فاضلة، وتمكنه من إثبات ذاته وتحقيق غاياته .

ثبت المراجع

- أفلاطون : محاوره بارمنيدس، ترجمة حبيب الشاروني ، مصر، المجلس العلمي للثقافة ، 2002 .
- توماس وول : التفكير الناقد في القضايا الأخلاقية: ترجمة، نجيب الحصادي، طرابلس ،المكتب الوطني للبحث والتطوير ، ط2، 2004، 1 .
- حربي عباس عطيتو : الفلسفة القديمة، القاهرة : دار المعرفة الجامعية، 1999 .
- حسن حنفي : موقفنا الحضاري، ضمن كتاب الفلسفة في الوطن العربي المعاصر، بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول الذي نظمته الجامعة الاردنية ، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 1987.
- خليل أحمد خليل: مستقبل الفلسفة، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1981 .
- روني بوفريس: العقلانية النقدية عند كارل بوبر، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العددان 23، 24، 2008.
- ريفو، البير: الفلسفة اليونانية، أصولها وتطوراتها، ترجمة: بوبكر زكري القاهرة : دار العروبة 1958.
- سالم يفوت : فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1982.
- سامية عبد الرحمن عبدالسلام : القيم الأخلاقية: دراسة نقدية في الفكر الإسلامي والفكر المعاصر، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية. ط1، 1992 .
- سعيد توفيق: صلاح قنصوة إنساناً وعالمًا، مجلة أوراق فلسفية، العدد 12، 2005 .
- سماح رافع : تدريس المواد الفلسفية في التعليم الثانوي، القاهرة، دار المعارف المصرية ، 1976 .
- شبكة المعلومات الدولية: من تدريس الفلسفة إلى التمرس على التفلسف، الجمعية الفلسفية المغربية. <http://falsafamagharibya.blogspot.com>
- عادل ضاهر : دور الفلسفة في المجتمع العربي، ضمن كتاب الفلسفة في الوطن العربي المعاصر، بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول الذي نظمته الجامعة الاردنية ، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 1987.

- عز الدين الخطابي: الفلسفة والتواصل الرهان والممكن، ضمن كتاب التواصل نظريات وتطبيقات، سلسلة فكر ونقد، اشراف محمد عابد الجابري، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط2010، 1.
- عمر ابوفناس: الأخلاقيات التطبيقية (مساهمة في تجديد الفلسفة العربية) مقال ضمن كتاب رهانات الفلسفة العربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 165، ط2010، 1.
- عمر بوفناس: الأخلاقيات التطبيقية ومسألة القيم، شبكة المعلومات الدولية www.alihaa.ma
- عمر التومي الشيباني: حركة الإصلاح التربوي في الوطن العربي، طرابلس: مجلة الفصول الأربعة، العدد 5، اتحاد الأدباء والكتاب، 1979.
- فضل الله محمد إسماعيل: نماذج من المشكلات الفلسفية والاجتماعية والسياسية والقانونية، الاسكندرية: مكتبة بستان المعرفة، ط2004، 1.
- كارل ماركس: مختارات من المؤلفات الكبرى . 1842 - 1846، ترجمة: ألياس مرقص، دمشق، دار دمشق للطباعة والنشر، بدون تاريخ.
- كرم، محمود: الأصل في فلسفة الوعي الإنساني، شبكة المعلومات الدولية www.annaqed.com.
- محمد عبدالرحمن مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، بيروت، منشورات عويدات، باريس، منشورات البحر الميت، ط2، 1981.
- محمد على ابوريان: الفلسفة ومناهجها، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، بدون ط، 2001.
- ميشيل توزي وآخرون: بناء القدرات والكفايات في الفلسفة، ترجمة: حسن أحجيج، منشورات عالم المعرفة، ط1، 2005.
- نجيب الحصادي: قضايا فلسفية، مصراته، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 2004.
- هنري برغسون: منبع الأخلاق والدين، تعريب، سامي الدروبي، عبدالله عبدالدائم بيروت، دار العلم للملايين، ط2، 1984.
- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1966.